



الكوارث الطبيعية والمشاكل السياسية والأمنية المؤثرة

في النشاط الزراعي خلال العصر الوسيط

Natural disasters and influencing political and security problems
In agricultural activity during the Middle Age

عبد الكريم حساين (*)

جامعة سيدي بلعباس، الجزائر

hassaine.abdelkrim.13@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/11/24 تاريخ القبول: 2020/10/04 تاريخ النشر: 2020/12/31

الملخص:

شكلت الكوارث الطبيعية و المشاكل السياسية و الامنية بالمغرب تحديا كبيرا عبر الزمان والمكان لما شكلته من أثار سلبية على البلاد و العباد وتفشي الامراض و الوبئة وظهور الازمات الغذائية ما بين سنة 688 هـ -776هـ/1289م-1374م وهلاك العديد من السكان وتدهور الاوضاع الاقتصادية و الاجتماعية ككل. رغم محاولات بعض المحسنين و الفقهاء و المتصوفة و العائلات الميسورة في مساعدة المساكين و الفقراء.

الكلمات الدالة:

الفلاحة، الكوارث، المناخ، الأزمات، العصر الوسيط

Abstract:

Natural disasters and political and security problems in West posed a great challenge across time and space because of the negative effects on the country and slaves and the spread of diseases and epidemics and the emergence of food crises between the years 688 AH-776 AH / 1289 AD-1374 AD and the destruction of many of the population and the deterioration of economic and social conditions As a whole. Despite the attempts of some philanthropists, jurists, Sufis, and affluent families to help the poor .

Keywords: Agriculture, disasters, climate, crises, the middle age

(*) المؤلف المرسل: عبد الكريم حساين hassaine.abdelkrim.13@gmail.com



على الرغم من وجود عوامل ساعدت على ازدهار الزراعة لكن بالمقابل كانت هناك عوامل أثرت بالسلب , وقد انقسمت إلى عوامل طبيعية تشمل الآفات الزراعية مثل الجراد و عوامل مناخية مثل الأمطار الغزيرة والرياح الشديدة والجفاف و السيول والفيضانات والحر الشديد والأوبئة وعوامل بشرية تشمل الحرائق والحروب والثورات. عرف أهل الغرب الاسلامي صلاة الاستسقاء ، وذلك لفترات الجفاف التي كان يمر بها و الكوارث و الجوائح التي ألمت به على مدار تاريخه دافعا لسكانه لكي يقوموا بتخزين الحبوب في المطامير مثل : فاس و تلمسان وقرطبة¹ . و الجدير بالذكر أن الفلاحة بالغرب الإسلامي واجهت مخاطر وآفات عدة ، كان في مقدمتها الصراعات السياسية و الجوائح و الأوبئة ، وقد عانى الفلاح من الأضرار الناجمة عنها ، والتي تسببت في مشاكل عديدة كادت أن تؤدي إلى شلل الفلاحة ، وفي هذا السياق سعى الفلاح لإيجاد الحلول و الطرق المناسبة للتصدي لهذه الآفات و التخلص من تبعاتها ، وتضافرت جهود الدول و الفقهاء لإنقاذ الفلاحين و التخفيف عنهم و التقليل من الأعباء المالية الناجمة عن ذلك ، ونسعى في هذا الموضوع لتسليط الضوء ، على هذه المسألة الهامة في تاريخ الفلاحة في العصر الوسيط ومن هنا نتساءل: ماهي الأخطار والآفات التي واجهت الفلاحة ؟ وماهي الخسائر والأضرار الناجمة عنها ؟

1- الأخطار التي واجهت الفلاحة:

تعتبر الصراعات السياسية من أبرز المخاطر التي واجهت مصير الفلاحة، ففي أغلب الأحيان تراجعت بسبب تدهور الوضع الأمني ووقوع ردود فعل انتقامية ، فقد أفاد القاضي النعمان بتعرض كل من خالف العبيديين لسياسات عقابية² . وأجاز سلب و نهب و حرق مزارعهم³ و ذكر الدرجيني خراب الفلاحة بتاهرت وتهجير سكانها على يد العبيديين⁴ وهذا ما كان مصير مدن أخرى كمدينة القيروان⁵ ، ونامدقوس، وشرشال⁶ .

وكان الخراب والفساد الذي لحق بالفلاحة، قد تعاقب واستمر في سياق سياسة عقابية شهدها المغرب الأوسط ، فمثلا مغلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار، اعتمد على سياسة الأض المحروقة ضد خصومه والبلاد التي أجاز بها، فقد أشار القاضي النعمان إلى أحد الفلاحين الذين تضررت فلاحته، وسلبت ماشيته وسبي أهل بيته وأخذو عبيده⁷ ، وفي سنة 363هـ تعرضت تاهرت للخراب والقتل وفساد الزراعة، وسلب الماشية على يدي الدولة الزيرية⁸ ، وهذا ما وقع لمدينة ملية سنة 378هـ ، من خبز وفساد وتهجير سكانها إلى مدينة باغاية، وفي نفس السنة شهدت تهرت نفس المصير، ولم تكن طينة وباغاية أفضل حالا منها، حيث



تعرضتا لسياسة تأديبية قامت على حرق المزارع والبساتين ، وأشار ابن عذارى للفساد الذي أصاب الفلاحة بالمسيلة، حين قال : أضرموا النار في الأبنية والبيوت و الزروب. كما أفاد البكري بخراب مدينة وهران، والمخاطر التي تعاقبت عليها سنتي 297هـ و343هـ¹⁰، فضلا عن مدينة وارجلان التي شهدت سنة 526هـ أعمال تخريبية تسببت في تراجع الفلاحة وتدهورها ولم تكن ظاهرة للصوصية أقل خطورة، فقد ورد عند أفلح بن عبد الوهاب في إحدى النوازل مسألة تتعلق بسرعة المطامر مما خلق مشكلا للفلاحين ، وأفاد الشماخي بتدهور الوضع الأمني في المنطقة الممتدة من واربيلان إلى نفزاوة، بسبب انتشار ظاهرة السطو للصوصية¹¹ وكان وفود القبائل العربية إلى المغرب الأوسط قد ضاعف من خطورة هذه الظاهرة وشكل سببا مباشرا لتدهور أحوال الفلاحة، وأدى إلى تعطيلها في مناطق عدة، بسبب انعدام الأمن وعدم قدرة الفلاحين على مزاولة نشاطهم الزراعي والرعي ، فقد نكر الإدريسي أن غارات القبائل العربية امتدت إلى غاية جبال الباب جنوب مدينة بجاية¹² لم والجدير بالذكر أن الجوائح كانت تشكل تحديا كبير للفلاحين، وقد اتفق الفقهاء على تحديد مفهوم الجائحة، واعتبروها كل ما لا يمكن الإحتراز منه، الذي يؤدي إلى إلحاق الضرر بالإنتاج، كالمطر، والجديد، والبرد، والدود، والعفن، والرياح ، والطير، والجراد، وغيرها،

يربطها الفقهاء في أغلب الأحيان بما يقع في الطبيعة، إلا أنهم أجازوا في الجائحة الأضرار الناجمة عن حركة الجيوش والصوص على شرط أن تزيد الخسائر على الثلث من محصول الثمار¹³، وجاء تحديد الجائحة عند أبي اسحاق الغرناطي على النحو التالي " معرفة شهادته بالقائم والموضع المجاح، وتحديدته، وتسمية الجائحة، ما كان أمرا غالبا لا يمكن دفعه، ولا يقدر على الاحتراز منه، كالريح، والمطر، والبرد، والجراد، والجديد، والطير، والدود، والعفن، والنار، واختلف في الجيش والسارق)، وتسمية قدر ما أذهبت، وأن تكون الثلث فأزيد¹⁴ وحسب فقهاء المالكية فإن تحديد الجائحة يختلف حسب نوع المنتج الزراعي المجتاح، فمثلا حددت الجائحة في الثمار بمقدار الثلث فما فوق، أما البقول، فالجائحة جائزة في قليلها وكثيرها¹⁵، وقد تضمنت المصادر الفقهية مسائل تعلق بالجائحة وما خلفته من مشاكل كثيرة لدى الفلاحين، فهي إحدى النوازل جاء فيها" السؤال الثاني والعشرون في الزرع إذا أصابه الصر وهو ربيع ، ثم أصابه القحط ، هل يلتزم الزراع الكراء"¹⁶.

فضلا عن ما ذكره ابن حماد في سياق حديثه عن حركة اسماعيل المنصور الفاطمي من وقوع ثلج عظيم ومطر كثير كاد أن يهلك الجميع ، وقد أعطى السلاوي صورة واضحة عن



الأضرار و الأخطار التي أحذقت بالفلاحة و حتى الناس و الحيوانات ، فكانت معضلة واجهت الجميع ، حين قال " وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة نزل برد عظيم الواحدة منه تزن رطلا وأكثر قتل الطير و الوحش و البهائم وكثيرا من الناس وكسر الأشجار و أفسد الثمار ، وكان ذلك بأثر قحط شديد وغلاء عام ، وفي سنة اثنين وأربعين وثلاثمائة نزل أيضا برد كثير لم يعهد مثله ، كثرة قتل المواشي و أفسد الثمار ، وجاءت السيول العظيمة بجميع بلاد المغرب ¹⁸ .

إضافة أن الجراد كان الأكثر فتكا بالفلاحة ، وغالبا ما تزامن القحط و الجفاف مع غزو الجراد ، مما نجم عنه كارثة انسانية بسبب تدهور الزراعة وقلة الأقوات ووقوع المجاعة ، فقد أفاد القاضي النعمان أن الجراد و الجفاف سادا جميع بلدان المغرب فأهلك الزرع و الضرع ¹⁹ ، ومات الكثير من الناس بسبب ذلك ²⁰ ، وقد أمعن ديونسيوس التلمحري في وصف الجراد وذكر خطره وضرره على الفلاحة و الناس ، حين قال " هي جرادة مزودة بأرجل وليس لها أجنحة للطيران أو التنقل ، ولكن ضررها أكثر إيذاء و أفضع وقعا من مقارع الغضب ، ولقد قيل عن الأرق لو سقط على هري قمح سيقضي عليه ²¹ .

ولا بد من التأكيد على أثر الوباء و الطعون على الفلاحة حيث مات الكثير من الفلاحين بسبب الأوبئة وانتشار الأمراض الفتاكة ، فقد أفاد ديونسيوس بقوة فتك وباء الطعون بالناس الذي ساد جميع بلدان العالم سنة 131هـ ²² ، ولم يفرق هذا الوباء بين البشر و الحيوانات ، فكان تدميره واضحا للفلاحة ، حيث لم يقتصر الأمر على موت الفلاحين وهجرة من بقي منهم على قيد الحياة ، بل تسبب في موت الماشية والدواب وكانت الأضرار و الخسائر عظيمة أدت لتراجع الفلاحة ، وذكر ديونسيوس وباء سنة 147هـ الذي انتشر في جميع أرجاء العالم بقوله : " إن الخيل والبغال و الحمير كانت غالبيتها قد نفقت ، وقد انتشر هذا الوباء في كل المناطق ، كما كنس هذا الوباء العالم كما تكنس المكنسة المنزل ²³ .

وقد عان المغرب الأوسط و جميع بلاد المغرب من تعاقب الأوبئة وما خلفته من خسائر لا تحصى ولا تعد سنوات 307هـ ، 373هـ ، 379هـ . وكان أخطرها جميعا الوباء العظيم الذي وقع سنة 344هـ ، لكثرة ما خلفه من كساد للزراعة وموت للناس و الحيوانات عن حد سواء ²⁴ .

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد ، بل تواصل وقوع الأوبئة قد عان الناس من الطعون الذي انتقل سنة 571هـ من المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط . وانتشر في الحواضر و البوادي ، ويرجح أن تعاقب الأوبئة بالمغرب الأوسط أدى إلى اضطراب في القدرة الانتاجية بسبب موت الكثير من المزارعين والرعاة ، وفرار البعض الاخر إلى مناطق لم يصلها الوباء ، فكانت نكس على

الفلاحة بوجه عام²⁵.

وتجدر الإشارة إلى خطورة الزلازل التي تدمر البنية التحتية للمنشآت المائية ، وتخلق مشاكل عديدة للفلاحة ، ففي سنة 245هـ ضرب زلزال خلف دمرًا عظيمًا قد تكرر وقوعه سنة 267هـ²⁶.

ولا بد من الإشارة إلى ما ذكره الفرستائي في الكثير من المسائل إلى خطر الوحوش و الخنازير وأنواع الهوام و الطيور و الفئران على الفلاحة بشكل عام²⁷ ، وأفاد الجاحظ بخطورة الخنازير التي يفوق ضررها الحيوانات المفترسة ، وما تسبب به من خراب المزارع و الضياع ، كما أن الحيات تلحق الفساد بالثمار و بعض المنتجات ك البطيخ و التفاح و الخردل وغيرها ، وتشكل خطراً على الفلاحين الذين بذلوا جهوداً كبيرة للحرز منها أو القضاء عليها²⁹ ، والجدير بالذكر الضرر الذي تلحقه الغربان بالثمار خاصة الثمر ، وفتك الأسود و الذئاب بالماشية و الثعالب وابن أوى بالدجاج وخطر الحيوانات المفترسة على الدواب³⁰.

جسدت الأخطار الطبيعية التي أحاطت بالسكان و الحيوان والاقتصاد بالمدن والقرى دون استثناء في بلاد المغرب من التضامن الاجتماعي وإغاثة المسكين والفقير لاسيما عندما تحل سنوات الجفاف و القحط و الظواهر الطبيعية القاسية الميزة الخاصة لأهل الخيرو في مقدمتهم المحسنين و الفقهاء المتصوفة والعائلات الميسورة وعلى سبيل المثال أبو العباس أحمد ابن مرزوق الذي كانت له مطامير من القمح و الفحم و الخليج و الزيت ، فقد كان يفتحها جميعاً أمام الفقراء و المحتاجين و يتصدق بها طوال اليوم ، كما كان كل يوم يتصدق بالخبز و الثياب طول السنة³¹.

2- أثار الأخطار الطبيعية:

ومن الآثار المترتبة عن ما سبق ذكره على سبيل المثال لا الحصر الأزمات الغذائية التي اجتاحت المغرب الإسلامي بصفة عامة و المغرب الأوسط بصفة خاصة ما بين 688هـ- 776هـ/1289م-1374م وتتمثل فيما يلي :

-أزمة غذائية 688هـ/1289م:

قد أشار العبدري الذي مر بتمسان سنة 688هـ/1289م بهذه الأزمة " ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلداً قد حلت به الزمان...."³² هذا إن دل على شيء إنما يدل على أن تلمسان كانت في شدة كبيرة نتيجة نقص المواد الغذائية.



-أزمة غذائية سنة 693هـ/1293م:

خلالها تضرر الانسان و الحيوان معا نتيجة الجفاف قلة الانتاج الفلاحي حيث بلغ سعر المد الواحد من القمح عشرة دراهم³³ فضلا عن النقص الكبير للسكان الذي كان عددهم يتجاوز مائة وخمسة وعشرين ألف نسمة . ولم يبق فيها إلا بضعة آلاف ، جعلوا من الصومود قوة للوقوف ضد المصاعب و المحن المختلفة.

-أزمة غذائية سنة 698هـ/1298م:

نتيجة الحصار الذي فرضه السلطان المريني يوسف بن يعقوب على تلمسان في عهد عثمان بن يغمراسن و الذي دام قرابة ثمانية سنوات وتواصلت الحصارات إلى حين الاستلاء على مدينة تلمسان نحو عشر مرات خلال عهد بني زيان³⁵ وعملوا على تشديد الحصار وعدم ادخال الأقوات وقد ذكر أبو العباس الناصري "أن الملك المريني وضع على أبوابها مسالح تحرسها وأوعد بالعقاب كل من يختلف إليها برفق أو يتسلل إليها بقوت".³⁶

-أزمة غذائية سنة 776هـ/1374م:

نتجت عن هذه الأزمة عن مجاعات التي ألمت بتلمسان و ارتفعت أسعار الموارد الغذائية ارتفاعا مذهلا ، وكان يحيى بن خلدون قد وصف ما وصلت إليه هذه المدينة من شدة وضيق بقوله " اشتملت سنة ست وسبعين وسبعمائة أجمل الله ختمها على مجاعة شديدة أكل فيها بعض الناس بعضا لريح ذات إعصار أهلك زرعها زرع صائفتها وحيوانها".³⁷

لخلاصة :

وخلاصة القول أن رغم هذه الأخطار الطبيعية ومصائبها جعلت من الفلاح بالغرب الاسلامي أنموذجا في بلورة تقنيات عديدة ومتعددة للنهوض بالفلاحة من خلال تطوير عالم البستنة في مختلف المجالات وتوفير حاجيات السكان الغذائية بصفة مستمرة عبر الزمن والدليل على ذلك انتهاز سياسة ادخارية للمواد الغذائية في المطامير منها الحبوب وكذا تجفيف بعض الفواكه كالتين والعناب للضرورة.

الهوامش:

- 1 عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6-14-12م) ط1 دار الطليعة ، بيروت. 2008 ص.196
- 2 القاضي النعمان، المجالس والمساربات، تحقيق الحبيب الفقي وآخرين، دار المنتظر، بيروت، 1996، ص.170.
- 3 المصدر نفسه، ج.24، ص.493-494.
- 4 الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق ابراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، د.ت، ج.1، ص.94.



- 5 ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد سيرتهم، تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، ت.ص73.
- 6 ابن حوقل، صورة الأرض ، مطبعة برل، ليدن، 1939، ص 76-77.
- 7 القاضي النعمان، المجالس والمساربات، المصدر السابق، ص377.
- 8 ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1 ، مطبعة الدولة التونسية، تودس، 1869 ص74.
- 9 ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، 1983 ، ص268..
- 10 البكري، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص252-253.
- 11 الشماخي، كتاب السير، تحقيق مجد حسن، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009، ص547، 549.
- 12 الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2010، ص262.
- 13 الحسن بولقطيب ، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين ، منشورات الزمن ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء - المغرب ، 2002 ، ص 25-26.
- 14 القاضي ، أبو اسحاق الغرناطي ، الوثائق المختصرة ، في ناجي ، مركز إحياء التراث العربي ، المغرب ، 1988 ، ص33.
- 15 القاضي أبو الوليد سليمان الباجي ، فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء و الحكم ، تحقيق محمد أبو الأجنان ، دار ابن حزم ، بيروت ، 2002 ، ص 226-227.
- 16 ابن رشد الجد ، فتاوى ابن رشد ، تحقيق المختار التليلي ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1987 ، ج2، ص 1284.
- 17 ابن حماد ، المصدر السابق ، ص 69.
- 18 السلاوي ، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، اعتنى به محمد عثمان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2007 ، ص153.
- 19 مؤلف مجهول ، تاريخ الأندلس ، تحقيق عبد القادر بوباية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2009 ، ص 222-223.
- 20 القاضي النعمان ، المجالس والمساربات ، المصدر السابق ، ص 470.
- 21 ديونسيوس التلمحري ، تاريخ الأزمان ، ترجمة شادية توفيق حافظ ، ط1، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ، 2008 ، ص 79-80.
- 22 المصدر نفسه، ص60.
- 23 المصدر نفسه، ص96.
- 24 مؤلف مجهول ، تاريخ الأندلس ، المصدر السابق ، ص 203-202.
- 25 الحسن بولقطيب ، المرجع السابق ، ص 53.
- 26 ابن الجوزي ، مختصر منتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق أحمد جمعة ، دار الأفاق العربية ، مصر ، 2011 ، ص235.



- 27 مؤلف مجهول ، تاريخ الاندلس ، المصدر السابق ، ص193.
- 28 الفرستائي ، القسمة و أصول الأرضين ، تحقيق بكير بن محمد و محمد بن صالح ، المطبعة العربية ، جمعية التراث ، الجزائر، 1997، ج 4، ص271.
- 29 الجاحظ ، كتاب الحيوان ،تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط2 ، مصر، 1965 ، ج 3، ص 453-454-455.
- 30 نفس المصدر، والجزء ، ص462
- 31 عبد العزيز فيلاي ، تلمسان في العهد الزياني ، موفم النشر والتوزيع ، الجزائر ، 2002، ج 1 ، ص255.
- 32 العبدري ، الرحلة المغربية تحقيق محمد الفاسي ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، المغرب 1968ص24.
- 33 ابن خلدون ، المقدمة ، دار الكتاب اللبناني 1990، ص302.
- 34 عبد العزيز فيلاي ، المرجع السابق ، ص257.
- 35 المرجع نفسه ، ص257.
- 36 الناصري السلاوي ، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر الناصري ، محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء المغرب ، ج3، ص90.
- 37 يحي بن خلدون . بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر، 1980، ج2، ص326.